باب فضل الإسلام

قوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) : ابتدأ المصنف كتابه بالبسملة مقتصراً عليها اتباعاً للوارد في السنة النبوية في مكاتباته ومراسلاته –صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك ، والتصانيفُ تجري مجراها .

ثم قال : (وبه نستعين) مفصحا عن مقصد من مقاصد البداءة بالبسملة وهو حصول الاستعانة بالله .

قوله : (باب فضل الإسلام) مقصود الترجمة : بيان فضل الإسلام ؛ وهو ما اختص به من المحاسن ، وأصل الفضل الزيادة ، ففضل الشيء محاسنه التي زاد فيها على غيره .

وذكر المصنف فضل الإسلام قبل بيان حقيقته للتشويق إليه ، وحث النفوس على طلب معرفته ، هو من سنة العرب في كلامهم تقديم الشيء على حقيقته إذا كانت مكشوفة معلومة ذكره ابن حجر في فتح الباري .

المقصود بالترجمة في اصطلاح أهل العلم :

ما يجعل عنواناً لما جاء بعده من الكلام ، فهو يترجم عنه ، أي يبين مضمونه .

ذكر المصنف لتحقيق معنى الترجمة ثمانية أدلة :

الدليل الأول : قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة:٣].

دلالته على مقصود الترجمة من ثلاثة وجوه : أولها في قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فمن فضل دين الإسلام أن دين كامل ، وأن الله هو الذي كمله ، وبلوغ الكلام فضل ،وكون المكمل هو الله غاية الفضل .

وثانيها في قوله : ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾فأجل النعم التي أتمها الله –عز وجل على عباده –هي النعمة الدينية بأن هداهم إلى دين الإسلام ، فمن فضلِ الإسلامِ أنه أجل نعم الله على عباده ، وأن الله أتم به عليهم النعمة

وثالثها في قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ فمن فضل الإسلام أنه الدين مرضي عند الله

الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس:١٠٤].

دلالته على مقصود الترجمة في تمامها في قوله : ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾

فمن فضل الإسلام أن معبود أهله هو الله ، ففقر القلوبِ وشعث النفسِ لا ينجمعُ إلا بأن يكون المعبود هو الله –سبحانه وتعالى -

الدليل الثالث : قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ.. ﴾ [سورة الحديد:٢٨].

دلالته على مقصود الترجمة في عظم الجزاء الموعود به على الإسلام فمن فضل الإسلام عظم جزاء أهله والإسلام مذكور في قوله : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾

فمداره على تقوى الله والإيمان برسوله –صلى الله عليه وسلم -.

والجزاء هو في قوله : ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾

، فالجزاء المذكور ثلاثة أنواع :

أولها : إتاء كفلين من رحمة الله .

والكفل : الحظ والنصيب ، فلأهله حظ ونصيب من الله في الدنيا ، وحظ ونصيب من رحمة الله في الآخرة

وثانيها : جعل الله لهم نوراً يمشون به ، يهتدون به في الدنيا إلى سبل السلام ، ويهتدون به في الآخرة إلى دار السلام .

سبل السلام : هي أنواع الطاعات .

دار السلام : هي الجنة .

وثالثها : مغفرة الله – عز وجل – فيغفر الله لهم مغفرة عامة من عنده .

والدليل الرابعُ حديث ابن عمر –رضي الله عنهما – أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –قال : (مثلكم ومثل أهل الكتابين ..) الحديث رواه البخاري ، وهو مقصود المصنف في قوله : وفي الصحيح ؛ فإن الصحيح يطلق ويراد به جنسه تارة ، أي جنسُ الحديث الصحيح وأن المذكور منه ، ويطلقُ تارة أخرى ويراد به كتبه المختصة به ، وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم اتفاقاً وانفراداً ، والمراد هنا يرجع إلى المعنى الثاني ، فالمراد به كتابٌ مختصٌ بالصحيح ، وهو صحيح البخاري .

ودلالته على مقصود الترجمة في قوله : (ذلك فضلي أُتيه من أشاء) فإن الحديث ضُرب مثلاً لهذه الأمة فإنها جاءت بعد الأمم ، وكانت بمنزلة آخر النهار من اليوم ، فمدة بقاءها قليلة ، وتعطى على أعمالها الأجور الجليلة ، فمن فضل الإسلام إعطاء أهله الأجور الجليلة على الأعمال القليلة .

الدليل الخامس حديث أبي هريرة –رضي الله عنه –قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم –(أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ...) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم ، فهو من المتفق عليه .
ودلالته على مقصود الترجمة قوله : (نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة) أي أن هذه الأمة آخر الأمم وجوداً في الأرض ، فهي الأمة السبعون ، وهي الأمة السابقة غيرها يوم القيامة ، فتتقدم الأمم ، ونالت سبقها بدين الإسلام
فمن فضل الإسلام أن إحراز السبق إلى الإسلام –إي تحصيله - يكون به وأولية هذه الأمة يوم القيامة نوعان :
أحدهما : أولتها بتقديمها على سائر الأمم بالفصل في الحساب
وثانيها : أوليتها على سائر الأمم في دخول الجنة .

والدليل السادس حديث (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) وعزاه المصنف إلى الصحيح معلقاً ، واطلاق العزو إلى الصحيحِ معلقاً يراد به البخاري لأنه أكثر من تخريج المعلقات ، بخلاف مسلم فمعلقاته قليلة ، فإذا وجدت ..رواه معلقاً فالمراد به البخاري غالباً المعلق في اصطلاح المحدثين : ما سقط من إسناده فوق المصنف واحداً أو أكثر .
والأحاديث المعلقة يُطلب وصلها بتخريجها من كُتب روتها بالإسناد تامة ،فيقال في مثل هذا : رواه فلان معلقاً ووصله فلان ، فيكون الراوي له أولاً أخرجه بصورة المعلق وأما الثاني فيكون أخرجه مع ذكر إسناده تاماً .
وهذا الحديث رواه البخاري معلقاً ووصله البخاري نفسه في الأدب المفرد من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما - ، وإسناده ضعيف ، وله شواهد يتقوى بها ، فهو حسن جزم به العلائي وغيره .
ودلالته على مقصود الترجمة من وجهين :
أحدهما : في وصفه دين الإسلام بأنه حنيف سمح ، فهو حنيف في الاعتقاد وسمح في العمل .
والحنيفية : هي الإقبال على الله .
والسماحة : هي اليسر والسهولة .

فمن فضل الإسلام كونه حنيف سمحاً .

والآخر في كونه أحب الدين إلى الله ، فمحبوب الله من الأديان هو الإسلام ،فمن فضله أنه أحب الدين إلى الله .

والدليل السابع حديث أُبيّ –رضي الله عنه –موقوفاً من كلامه أنه قال : (عليكم بالسبيل والسنة ..) الحديث .ولم يعزه المصنف ، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة في المصنف ، وإسناده ضعيف ومعناه صحيح ، ومثل هذا مما يسامح في ذكره لصحة معناه وكونه موقوفا .

ودلالته على مقصود الترجمة من وجهين :

أحدهما : في قوله : (فإنه وليس على من عبد على سبيل وسنة ذكر الله ففاضت عيناه فتمسه النار) فمن فضل الإسلام أنه يحرم العبد على النار .

والآخر : في قوله : (وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله مثل شجرة يابس ورقها فبينما هي كذلك أصابتها ريح فتحاتت عنها ورقها إلا تخات عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها) فمن فضل الإسلام أنه يمحو ذنوب العبد .

وهذان المعنين المذكوران في فضل الإسلام أنه يحرم أهله على النار ويمحو ذنوبهم ثابتان بدلائل كثيرة في القرآن والسنة أن الإسلام يحرم أهله على النار ويمحو به ذنوبهم ذكر كلام أُبيّ بن كعب في محلها لما فيه من بيان الإسلام المودي إلى ذلك في أعلى درجاته ، واختار المصنف -رحمه الله تعالى – ذكر كلام أُبيّ بن كعب –رضي الله عنه - في محلها لما فيه من بيان الإسلام المودي إلى ذلك في أعلى درجاته وهو الإسلام الذي يكون فيه العبد على السبيل والسنة أي على الدين الخالص الذي جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم – فأولى المنتسبين إلى الإسلام بتحريمهم على النار بمحو ذنوبهم هم الذين ما عليه النبي –صلى الله عليه وسلم - وينقص حظ العبد من هذا على قدر نقصانِ حظه من اتباع سنة النبي –صلى الله عليه وسلم -.

والدليل الثامن حديث أبي الدرداء –رضي الله عنه –موقوفا من كلامه الذي قال :
(يا حبذا نوم الأكياس ..) ولم يعزوه المصنف أيضاً ، رواه ابن أبي دنيا في كتاب اليقين وأبو نُعيم في حلية الأولياء ، وإسناده ضعيف ، وصحة معناه تحمل على المسامحة في ذكره .
ودلالته على مقصود الترجمة في قوله : (ومثقال ذرة من تقوى مع برٍّ وتقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح عند الله من عبادة المغترين) .
فمن فضل الإسلام أنه مع حسنه تضاعف به أجور العبد ، فإن الحسنة بعشر أمثالها وتضعيفها فوق ذلك بالزيادة عليها يكون على قدر حسن إسلام العبد ، فمن حسن إسلامه ضُعِفَ أجره ، فمن فضل الإسلام أنه إذا حسن إسلام العبدِ ضُعِفَ به أجره على أعماله ، وهذا المعنى المذكور على فضل الإسلام ثابت بدلائل كثيره من حديثه –صلى الله عليه وسلم – من روايته في الصحيح من رواية ابن عبّاس وأبي هريرة –رضي الله عنهما - ، واختار المصنف ذكر هذا الأثر لتقرير هذا المعنى لما فيه من بيان ما يحصل به حسن إسلام العبد ، وهو قوله : (مع برٍّ وتقوى ويقين) .